obeikandl.com

obeikandl.com

الحوار سمة حضارية

مقدمة:

شهد التاريخ حضارات متعددة، كان أبرزها الحضارة الهندية، والحضارة الفرعونية والفارسية والرومانية، وكان لكل منها خصوصية تميزها عن غيرها من الحضارات، فمنها ما غلب عليها الطابع الروحي، ومنها ما غلب عليها الطابع المادي، ثم أشرقت الحضارة الإسلامية بنور ربها على أرجاء الأرض، ومن ثم بدأ طور جديد في التاريخ الإنساني، وقد تميزت هذه الحضارة بالنزعة الروحية والنزعة المادية، أي جمعت بين متطلبات الروح والمادة.

ولا شك أن القرآن الكريم كان يمثل المكون الفكري الجوهري لهذه الحضارة، والمنبع الصافي لكل المسلمين، فهو مناط النظر والتأمل ومحل التفكير والتدبر لاسيما علماؤه ومفكروه، «إذ إنه قد أعان المتصوفة، كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم، فهو قاموس للنحاة واللغويين، ومشار فلسفة للباحثين والمفكرين، وذكر يتقرب به المبتهلون والمتضرعون، وقانون يرجع إليه المشرعون، وعقيدة يحتج بها المتكلمون» .[(١)]

ومن النظر في قوانينه نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق[(٢)]. وقد نجحت هذه الحضارة في تأسيس العلوم الدينية والدنيوية، وإنشاء المذاهب الفقهية، والعقائدية، ووضع قواعد المنهج العلمي، وبناء المدن الجديدة، وإعداد جيش قوي يحمي تقدم الحضارة الجديدة إلى المرتقى الصعب، التي استطاعت أن تسيطر على أكبر حضارتين في ذلك العصر هما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية.

ونحب أن نؤكد أن أبرز ما كان يميز هذه الحضارة الوليدة هو الطابع الأخلاقي،

(١) د/ إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية ج ١/ ٦٣.
(٢) د/ سامي النشار: نشأة الفكر الإسلامي ج ١/ ٢٥٢.

وإرساء قيم الخير العام، والعدالة الاجتماعية، والشورية في الحكم، وتطبيق مبادئ المساواة بين أجناس البشر، والدعوة إلى الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن مع الأصدقاء والأعداء على حد سواء، وفتح صفحة جديدة مع كافة الأجناس التي انضوت تحت جناحيها، وتأسيس لغة جديدة تقوم على التفاهم والنقاش وسماع الرأي والرأي الآخر، واحترام وجهة نظر الآخرين.

وعلى الجملة تأسيس أبجدية جديدة، وخطاب أصيل يسمى الحوار.

أولا: تعريفات

١] مفهوم الحوار:

- لغة، الحَوْرُ تعني الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، من حَارَ يَحُورُ حوراً، أي رجع، وأحار عليه جوابه رَدَّه، والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب، وتقول: كلمته فما أحار إليَّ جواباً وما رجع إليَّ حَويراً ولا حِوَاراً أي رد جواباً.

ويتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمحورة: من المحاروة مصدر كالمشورة من المشاورة [(١)].

- واصطلاحاً، سوف يلاحظ أن المعنى الاصطلاحي مستنبط من المعنى اللغوي، ودلالته مشتقة من هذا التعريف اللغوي، فالمقصود بالحوار طريقة إيراد الكلام بين المتحاورين، وكيفية الأخذ والرد، والسؤال والإجابة من خلال طرح الأدلة، والحجج النقلية والعقلية المبينة للقضية التي نحن بصدد الحديث عنها. والغاية من ذلك اتضاح الحقيقة، والوصول إلى الصواب.

وعلى المحاور أن يبغي الإنصاف والتأني والتأمل، وخلوص النية وحسن المسلك وسلامة الصدر، ونقاء الضمير، وأن يكون منطقيا مع غيره إذ إن «المنطق هو بحث عن الحقيقة من طريق النظر السليم والتمييز الصحيح» [(٢)]

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ٢٠٠٠، مادة حور.
(٢) العقاد: التفكير فريضة إسلامية ص ٣٠٦. (المجموعة الكاملة ج ٥)

obeikandi.com

ويتحرز عن الشغب والمغالطة والتشويش لأن قصد المتحاورين المشاورة في الرأي والكشف عن الحقيقة. وقد أطلق العلماء على المحاورة اسم «علم النظر» [١]، ونوهوا بدوره في توضيح الصواب، وفرقوا بينه وبين علم الجدل الذي قللوا من شأنه إلى حد ما إذ عدوه «علما باحثا عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد، وعلى هدم أي وضع كان والغرض منه تحصيل ملكة الهدم والإبرام» [٢] ويذم جانبا منه باحث آخر فيقول: «الجدل بحث عن الغلبة والإلزام بالحجة قد يرمي إلى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة، وقد يتحرى مجرد المسابقة للفوز على الخصم وإفحامه في مجال المناقضة واللجاج» [٣].

على أنه من المعلوم أن ليس كل جدل مذموما، فهناك الجدل المحمود الذي يقصد به الدعاء إلى الحق المبين بالحكمة والموعظة الحسنة، ووسمه القرآن بالتي هي أحسن.

ونستنتج مما سبق أن الحوار منهج لتبادل الرأي، واستخلاص زبدة الفكر، وصفوة القول، من خلال تقادح الأذهان بين جمهرة المثقفين للوصول إلى كلمة سواء، ونصرة الرأي الصواب.

٢] مفهوم الحضارة:

سوف نلقي نظرة سريعة ومختصرة على مفهوم الحضارة، فهي «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء» [٤].

وفي مفهوم آخر هي «نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة التي عمادها بصفة أساسية

---

(١) طاش زاده: مفتاح السعادة ج ١/ ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق ج١ / ٣٠٤/ ٣٠٥.
(٣) العقاد: مصدر سابق ص ٣٠٦.
(٤) ديورانت: قصة حضارة ج١/ ٣ (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م).

obeikandl.com

معيشة الحضر وما تتطلبه من تنظيم، وما تسفر عنه من نتائج وتدابير تتمثل في الكتابة والتشريع ونظم الحكم وأساليب التجارة والتدين» [١].

ونخلص من ذلك أن مصطلح الحضارة يطلق على نمط من أنماط الحياة الراقية، التي تؤكد تجاوز مجتمع من المجتمعات الأساليب البدائية التي كان يستخدمها، وتعبر عن مرحلة متقدمة بلغها في مجال التطور، وتوضح درجة الإبداع البشري في مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والعقلية والاجتماعية.

ونحب أن ننوه إلى أنه ليس من الضروري أن يكون مفهوم الحضارة مفهوما إيجابيا، أي ليس كل ما ينتمي إلى الحضارة لابد أن يمت إلى الفضيلة بصلة أو ينطوي على معان إنسانية، أو أخلاق راقية أو يؤكد على الخير العام للبشر جميعا، إذ إن مسار الحضارات جميعا لم يكن سواء، وللأسف فإن معظم الحضارات التي شهدها التاريخ، وكذلك الحضارة المعاصرة، لم تخل من سلبيات جمة وأهمها العنصرية، واستعباد الشعوب، وغمط حقوق الضعفاء، وإهدار كرامتهم. وقد وصف «عمانويل كانط (١٨٠٤) E.Kant» حضارة أوربا بالحضارة العرجاء، لأنها تسير على قدم واحدة، ويعني بذلك اختفاء البعد الروحي والانهماك في الجانب المادي.

ومع إقرارنا بالجوانب الإيجابية في الحضارة الأوربية المعاصرة لاسيما التقدم في الجانب العلمي، والإبداع العظيم الذي وصل إليه الإنسان بهبوطه على سطح القمر، والتقدم التقني الهائل وثورة المعلومات، والهندسة الوراثية، والاستنساخ، وطي المسافات بين الدول والرخاء المذهل، والحرية بجميع أبعادها التي يتمتع بها الرجل الأوربي، هذا كله أمر مسلم به لا ينكر ه إلا جاحد.

ومع هذا نقول: إن هذه الحضارة فيها من الجوانب السلبية الكثير، فقد ادعت أن الإنسان يقف بمفرده في هذا الكون، دون حاجة إلى معونة خارجية غيبية، واستخدمت أسلوب الاستعمار لقهر الشعوب وباركت النظريات العنصرية التي تؤكد استعلاء جنس

(١) عبد المنعم نور: الحضارة والتحضر ص ٥.

openkandil.com

على آخر، علاوة على انعدام الجانب الخلقي كلية بما يمثله من ركن جوهري في منظومة القيم للفرد والمجتمع والدولة [١].

والحقيقة أن المعيار الصحيح للحضارة هو مدى قوة صلتها بواجب الوجود، واحترام كرامة الإنسان الذي هو أعظم المخلوقات على هذه الأرض، وإقامة مصالحة بين طموحات العقل وتطلعاته، ومنطلقات الوحي الصحيح، فالعقل وسيلة عظيمة لفهم حقائق الدين، وسندٌ لها، ولم يقع تعارض بينهما إلا في عصور التخلف.

وعلى الجملة نقول إن معيار الحضارة أن تكون إنسانية وتحقق الخير العام للجميع.

ثانيا: أهمية الحوار:

١) لاشك أن الحوار يغني الحياة الفكرية اليومية، ويطرح آراء جديدة قد تكون خافية على بعض الباحثين، ويفتح لنا آفاقا لم تكن مرتادة، ويناقش حلولا طريفة للمشكلات الثقافية التي تبرز على الساحة، ومن ثَمَّ فإن تبادل الآراء بين مجموعة المتحاورين يفضي إلى خصوبة فكر الحضارة الإسلامية بخاصة والحضارة العالمية بعامة.

ومن البدهي أن العقل الفردي - وهو أفضل مواهب البشر - مهما بلغ من قوة الذكاء، أو غزارة المعرفة أو عمق الألمعية؛ فهو محدود لمحدودية الطاقة البشرية، لكننا لو جمعنا حاصل خبرات هذه العقول مجتمعة لوسعنا من آفاق العلم والمعرفة، وفتحنا ميادين جديدة أمام الفكر الإنساني، وانتقلنا من النظرة الجزئية إلى النظرة الكلية، ومن النظرة الذاتية إلى النظرة الموضوعية، وهذا ما نلمسه في الأعمال العلمية الكبيرة التي يتضافر عليها نخبة من المفكرين كما نرى في المؤتمرات العلمية، أو الموسوعات الثقافية الكبرى، أو الاكتشافات العلمية التي تفضي إلى رقي البشرية، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة.

٢) تجنب الرأي الفردي أو الرأي الأحادي:

ما دمنا قد اتفقنا على إقامة الحوار، وتبادل الأفكار، ومن ثَمَّ إغناء المعرفة الإنسانية

(١) محمد قطب: شبهات حول الإسلام صـ ١٥٩، وهبة الزحيلي: نظام الإسلام صـ ٣٦٩.

obeikandl.com

فمعنى ذلك أننا ننكر الرأي الفردي الذي يريد أن يفرض نفسه بالضغط والإكراه، ونرفض الاستبداد الفكري لآثاره المدمرة في تاريخ الفكر العربي، والتاريخ الإنساني، ونسوق مثالين على ذلك:

– ما قام به الخليفة المأمون من امتحان العلماء في القول «بخلق القرآن» ، ومحاولته فرض هذه المسألة بقوة السلطة، ونفوذ الخلافة، على علماء الأمة، وجماهير المسلمين، ولما كان المعتزلة من أنصار المأمون، ومن المناصرين للقول بخلق القرآن، فقد قاموا بهذه المحاكمة، وأصبحوا هم الخصم والحكم، وتزعم أحمد بن داود (٢٤٠هـ) هذه المحاكمة، وامتحن الإمام أحمد بن حنبل (٢٤٠هـ)، وجمهرة من علماء الإسلام، وأهينوا على الملأ وأنزل بهم العذاب جميعا، وكان من نتائج هذه القضية أن تشتت شمل المسلمين، واتسعت الفرقة بينهم، واشتدت النقمة على المعتزلة، مما عجل بسقوطهم على الرغم من دفاعهم المجيد عن عقائد الإسلام [(١)].

وفي هذا السياق أحب أن أشير إلى موقف الخليفة المنصور (١٥٨هـ) حينما أراد جمع كلمة المسلمين حول كتاب «الموطأ» ونشره في الأمصار ـ وهو يعدّ خلاصة فكر الإمام مالك (١٥٠هـ) طوال أربعين عاما ـ أنكر الإمام مالك عليه ذلك، ورفض هذه الفكرة بشدّة، وطلب من الخليفة أن يدع المسلمين، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم [(٢)].

وهنا أريد أقول إن الخليفة المنصور حينما اقتنع بوجهة نظر الإمام مالك، كان ابعد نظرا، وأوسع أفقا، وأكثر حنكة من الخليفة المأمون لأنه أدرك خطورة العواقب السيئة التي من الممكن أن تترتب على فرض الرأي الأحادي على جماهير المسلمين.

– أما المثال الآخر، فهو ما فعله الخليفة المتوكل (٢٣٥هـ) الذي عمل جاهدا على نشر فكر أهل السنة ووأد كل ما عاداه من آراء للفرق الإسلامية الأخرى، ليس هذا فحسب بل هدم كل فكر حر بزغ في سماء الحضارة الإسلامية مثل فكر المعتزلة، إذ عزل قضاتهم،

(١) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص ١٦٧، ولترباتون: أحمد بن حنبل ص ٨٤، ضحى الإسلام ج٣/ ١٩٧، أبوزهرة: المذاهب الإسلامية ص ١٩٠، تاريخ الجدل ص ٦٣.
(٢) د/ طه جابر العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام ص ١١٧.

obeikandi.com

وسجن ولاتهم وقتل بعضهم، وأحرق كتبهم، وكذلك فعل بالشيعة إذ كان سيفا مسلطا على رقابهم، حتى بلغت به الجرأة أن حرث مقبرة الحسين، وأقدم على منع علوم الفلاسفة، وحرق كتبهم وأنكر آراء الجهمية وهكذا لم يبق في الساحة رأيا مسموحا به غير رأي أهل السنة، واستبعد تماما مبدأ التعددية المذهبية، مما أفضى إلى سيادة الرأي الأحادي، وانتشار النزعة الدجماطيقية Dogmatique، أي اليقينية التوكيدية، وهي نزعة بدائية ملازمة للإنسان البدائي، وهذا كله أدى إلى نضوب ينابيع الفكر العربي، وسيطرة مبدأ التقليد، وجمود الحضارة الإسلامية وتخلفها، وظل هذا الوضع قائما حتى بداية النهضة الحديثة.[١]

٣) تطبيق مبدأ الشورى:

يعد الحوار في أحد جوانبه، والاستماع إلى الرأي الآخر، ومناقشته ذا صلة وثيقة بتطبيق مبدأ الشورى، فهو يقرر تبادل المسلمين الآراء فيما بينهم، وطرح وجهات النظر لسبر أغوارها، لاسيما في القضايا الهامة التي تتعلق بالشؤون السياسية والاقتصادية والفكرية.

ولما كان الحوار سمة من السمات الإيجابية للحضارة كانت الشورى تعد من أهم صفات المؤمنين المخلصين الذين وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى ٣٨]، أضف إلى ذلك أن الله سبحانه حث رسوله وحضه على الأخذ بهذه القاعدة الجليلة، إذ قال في كتابه الكريم ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران ١٥٩].

ولا نريد أن نستفيض في استعراض الآيات التي تدل على حض القرآن الكريم المسلمين على تطبيق مبدأ الشورى، ولا الأمثلة التي وقعت في حياة الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين بخاصة وفي الحضارة الإسلامية بعامة، فهي مشهورة ومعروفة للقارئ

(١) المسعودي: مروج الذهب ج٤/ ١٠٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٣٨، الخوارزمي: رسائل الخوارزمي ص ٩٢، حسين مروة: النزعات المادية ج١/ ٨٢٨.

العادي، بله المثقف الحصيف [١].

إن حياة الرسول ﷺ كانت مثالا فذا للحوار الراقي، والأخوة الصافية، والمحبة الملائكية النقية إذ حاول بكل السبل الممكنة، والوسائل المتاحة، وجهد الطاقة البشرية أن يقنع صناديد قريش، ومن بعدهم قبائل العرب بصدق ما جاء به ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۞ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣- ٢١٥]، وفي الوقت نفسه فتح قلبه وعقله لأهل الكتاب من اليهود والنصارى وحاول أن يحاورهم حول ما جاء به من الحق ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولكنهم أعرضوا عن مبادئه، واستكبروا بجاهليتهم، ونأوا بجانبهم، وأعمى بصيرتهم حب الرياسة والغطرسة، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وما حياة رسولنا الكريم إلا سلسلة من هذا الجدل المحمود الذي يبغي الحق، ويسعى إلى إيضاح المعرفة الصحيحة، وتنقية العقل من الخرافات مما ران على النفوس من شوائب التعصب والجمود، والركون إلى عبادة الآباء والأجداد. [٢]

ونخلص من هذا إلى أن إطلاق الحوار وإتاحته بين المذاهب الإسلامية، والمدارس الفكرية التي تموج بها الساحة الفكرية المعاصرة، هو الوجه الآخر لتطبيق مبدأ الشورى الذي يجب ألا يقتصر على الجانب السياسي كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، بل يمتد إلى شؤون حياة المسلمين كافة.

٤) تمحيص القضايا وغربلة الأفكار:

إن المنظومة الثقافية عند أي مفكر من المفكرين معرضة للخطأ، وقابلة للتمحيص والنقد، ومن البدهيات أن كل رأي له ما يعارضه، وكل وجهة نظر لها نقيضها، وكل مذهب من المذاهب الفكرية مهما بلغ إعجابنا به نستطيع أن نتلمس جوانب النقص فيه،

(١) محمد الغزالي: فقه السيرة ص ٢٤ (ط. الجزائر).
(٢) سيد قطب في ظلال القرآن ج١/ ٤٠٥، تاريخ الجدل ص ٤٠-٥٨.

وكذلك كل مذهب لا تروقنا مبادئه لا شك إننا واجدون فيه بعض الإيجابيات [١].

ونستأنس بقول لابن تيمية (٧٢٨هـ) الذي يؤيد ما ذهبنا إليه ومفاده: كل ما عدا المعصوم فمأخوذ منه ومتروك.

ولما كانت المعارف البشرية ناقصة بقدر ما، لأن هذا من أخص خصائص الفطرة الإنسانية فقد أصبح استخدام قاعدة تمحيص القضايا، وغربلة الأفكار شرطا للحوار المثمر. وبالجملة فإن استخدام المنهج النقدي لتشريح القضايا المطروحة للنقاش يعد غاية في الأهمية.

لذلك نقول: إن من أهم الفوائد الجليلة التي نستطيع أن نجنيها من إدارة حوار واسع بين جماعة المثقفين هو تطبيق المنهج النقدي الذي يعتمد أول ما يعتمد على تحليل جوانب القضية التي هي محل النقاش، وإظهار الغث من السمين، والسقيم من الصحيح، والعكوف على دراسة القضية لإبراز جوانبها الإيجابية والسلبية «والاهتداء إلى مظاهر الضعف ومظاهر القوة، وإلى ما هو خطأ وما هو صواب فيما بين يدينا من معطيات النظر نتيجة فحص التقابل بينها» [٢] وهذا يفضي بنا في نهاية الحوار إلى الرؤية الصحيحة والحكم الصواب.

ولنأخذ مثالا على ذلك، فلو دققنا في رأي بعض المؤرخين في شرط القرشية للإمامة، فسوف نلحظ أن من إيجابيات ذلك أن خليفة المسلمين سوف يتمكن من الاستناد إلى عصبية قوية تقف وراءه، وتنصره على أعدائه وتشد أزره، والقرشية آنذاك تمثل في وقتنا الحاضر الحزب القوي الذي يمثل الدعامة الكبرى التي يستند إليها أي حاكم يتم اختياره فهو الذي يرشحه ويزكيه ويناصره ويقويه ويقف معه في مواجهة الأحزاب المعارضة.

على أن هذا السبب نفسه دعا بعض المؤرخين أن يستبعد شرط القرشية، مظنة الاستبداد والحيف في الحكم، وظلم الرعية ومن ثم قد لا يستطيع المسلمون أن يزيلوا

(١) توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص ٢٦،(القاهرة، ١٩٥٥).

(٢) عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين ص ٦٠ (المعهد العالمي للفكر الإسلامي،١٩٩٢).

الإمام من الحكم أو يثوروا ضده.

وهكذا نجد أن وجهة النظر التي تقول بالقرشية لها إيجابياتها وسلبياتها، ونستطيع أن ندرك منها مواطن القوة ومواطن الضعف وكذلك نقيض القضية. (١)

إننا إذا تفحصنا مختلف الموجودات الكائنة في هذا الكون أدركنا أن لها محاسن ومساوئ ومنافع ومضار، أي لها جانب خير وآخر شرير، ويرى بعض الفلاسفة أن الشر الخالص لا يوجد في الكون وأن الشر الموجود شر نسبي، فهو من ناحية شر ومن ناحية أخرى خير، فالخير العميم الحاصل من سقوط المطر لا ينفي وقوع أضرار جسيمة له، والشمس سخرها الله لعباده لما فيها من المنافع، مع أن فيها من المفاسد ما لا يخفى على عاقل. (٢)

وقد طبق القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) المنهج النقدي في نظرته للحيوانات المؤذية مثل الحيات والعقارب والوحوش المفترسة، فرأى أنه على الرغم من منظرها الكريه، وخبث فعلها، ومفاسد وجودها، فلها جانب يتمثل في منافع كثيرة دنيوية ودينية، فنحن نأخذ من الحيات والعقارب ترياقا لدفع السموم، ثم إننا عندما نرى صور الحيوانات الكريهة المؤذية، نكون أقرب إلى الاحتراز من عذاب الله الذي هو أشد وأضر، ولعل الله يخوفنا بهذه الحيوانات لنعلم أن عنده على الأقل من جنس ما نشاهده الآن حتى نزدجر ونرتدع. (٣)

كأنما ما نراه في حياتنا من قضايا ومشكلات وموضوعات ناقص بوجه من الوجوه، وأنه في طور التشكل والتطور والسعي الحثيث للوصول إلى الكمال.

وحينما نعطي مساحة عريضة لحرية الحوار، وتبادل الأفكار، فإن العقل يستطيع ارتياد آفاق مجهولة، ويتلمس الأبعاد المتعددة للموضوع الواحد، ويستكشف جوانب القوة فيستفيد منها، ويسقط مواطن التهافت فيستبعدها أو يحيد عنها.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج١/ ٨٣ (ط.بدران).
(٢) ابن القيم الجوزية: طريق الهجرتين ص ١٠٤ (تح، محب الدين الخطيب).
(٣) عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٠٦-٥٠٧ (تح عبد الكريم عثمان).

Obeikandi.com

ثالثا: نظرة تاريخية:

أ-الحوارات الفكرية:

يحتل الحوار مكانة مرموقة في الحضارات المختلفة، ويحفل الفكر الإنساني بحوارات مشهورة أثرت في مجراه، وعبرت عن رقي العقل الفلسفي.

١- ولعل من أشهر هذه الحوارات ما قام به سقراط (٣٩٩ ق.م) في جداله مع السفسطائيين، إذ كان مضمون منهجه هو الحوار الاستنباطي الذي يستند إلى التهكم والتوليد وذلك من أجل الوصول إلى تحديد الماهيات.

كان سقراط يطرح سؤلا بسيطا عن ماهية الخير والشر، والصداقة والعدل والشجاعة، وحينما يجيب السفسطائي يفرع سقراط أسئلة متعددة يستنبطها بمهارة من السؤال الأول، حتى تظهر حيرة من يحاوره، ويتبدى له جهله العميق بحقيقة الموضوع، وهذه هي مرحلة التهكم، ثم في خطوة أخرى يحاول سقراط توليد بعض المعاني، والحقائق الكامنة في نفس السفسطائي، اعتقادا منه ألا سبيل إلى استخراجها منها وتوليدها إلا بالحوار.

وقد اشتهر سقراط بقدرته الفائقة على إدارة الحوارات التي كان يجريها بين شباب أثينا في النوادي والشوارع والميادين [(١)].

٢- أما أفلاطون (٣٤٧ق.م) فقد اشتهر بأن معظم كتبه صيغت بأسلوب الحوار. وقد فضل هذا الأسلوب إيمانا منه بأن الحوار هو الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة الكامنة في النفس كمون النار في الحجر الصوان، منذ أن كانت تعيش في عالم المثل ولكنها نسيتها بسبب سقوطها في رداء البدن، ولا سبيل إلى استجلاء الحقيقة إلا باحتكاك الآراء والأفكار وإخضاعها لنقد الآخرين. [(٢)]

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٨٤، أميرة مطر: الفلسفة عند اليونان ص ٥٦، مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص ٩٨، الموسوعة الفلسفية العربية ص ٣١٩.

(٢) مرحبا: المصدر السابق ص ١١٤/ ١١٥.

obeikandi.com

ومن أشهر المحاورات، الجمهورية[١](وفيدون، واقريطون، والدفاع، وأوطيفرون)[٢] والمأدبة[٣]، وفايروس، وثياتيتوس[٤] وغيرها كثير.

وإذا انتقلنا إلى الحضارة العربية الإسلامية بداهة أن نتوقف لنشير إلى دور القرآن الكريم[٥] في التنويه بشأن الحوار والإعلاء من دوره كوسيلة من وسائل التفاهم، واكتساب الخبرات وتمحيص الآراء، وعرض وجهات النظر المتباينة للمتحاورين.

١- والحقيقة أن القرآن الكريم «بنى الإيمان على حركة العقل الباحث اليقظ ثم صاغه في قالب من البيان المعجز»[٦] للرد على أهل الديانات السابقة، وتحريفهم للكتب المقدسة وتبديلهم بجوهر العقائد السماوية المنزلة خليطا من الفلسفات الهندية واليونانية، وتغيير معالم الوحدانية كفكرة واضحة بينة بذاتها إلى تصور تثليثي معقد غامض، عسير التصور في العقل، فضلا عن إضفاء صفة الألوهية على الرسل من البشر.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يلمس لمس اليد أنه أقام حواراً مسهبا مع اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والدهرية، وأعطى لمشركي العرب مزيدا من الخطاب والاختصاص، إذ رد على أقوالهم، وفند حججهم، وجادلهم جدالا مفحما، وبسط أغلب المسائل العقائدية المنتشرة بينهم مثل تأليههم للملائكة، ودعوى بنوتهم لله، وإنكارهم النبوات، وترددهم في أمر البعث والحشر.[٧]

أما أصحاب هذه الحضارة فنستطيع أن نسوق نماذج مختصرة من حواراتهم الحيوية، المملوءة بالحرية الفكرية التي تدل على سعة صدر هذه الحضارة لتقبل مختلف الآراء التي تدور داخل إطار العقائد الإسلامية.

---

(١) ترجمها الدكتور فؤاد زكريا.
(٢) ترجمها الدكتور زكي نجيب محمود تحت اسم محاورات أفلاطون.
(٣) ترجمها الأستاذ وليم الميري.
(٤) قامت الدكتورة أميرة حلمي مطر بترجمة المحاورتين.
(٥) عرض الشيخ محمد أبوزهرة صفحات مطولة ليدل على الجدل في القرآن، (تاريخ الجدل ص٥٩-٦٦).
(٦) محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي ص ٤٠٧.
(٧) محمد الزيني: نشأة علم الكلام وأهدافه ص ٥١ (ط، الأمل، صنعاء ١٩٩٩م).

٢- محاورة عمر بن عبد العزيز مع غيلان الدمشقي:

كانت الدولة الأموية تتشيّع لنشر المذهب الجبري وتسعى لتأكيده في عقول المسلمين ولكن نفرا من المفكرين انبرى لهذه الدولة ورفضوا هذا الاتجاه الذي يثبط الهمم ويهدم مبدأ الثواب والعقاب، ومنهم غيلان (١٠٥هـ)، ولما اتسع نطاق دعوته، طلبه عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)، ودارت بينهما هذه المحاورة.

قال عمر: علم الله نافذ في عباده أم منتقص؟

قال غيلان: بل نافذ.

قال عمر: ما هذا الكلام الذي سمعته عنك.

قال: أقول ما قال الله ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا..﴾ حتى قوله ...﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان ١-٣].

قال عمر: أكمل السورة فقرأ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان ٣٠-٣١].

قال عمر: كيف ترى رحمة الله تأخذ الفروع وتدع الأصول، ثم سأله: ألم يكن في سابق علم الله حين أمر إبليس بالسجود لآدم أنه لا يسجد؟

قال غيلان: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: ألم يكن في سابق علم الله حين أمر آدم ألا يأكل من الشجرة أنه سيأكل؟

قال غيلان: نعم.

والمدقق في المحاورة يجد أننا بصدد رجلين كفئين يتحاوران للوصول إلى كشف جوانب الحقيقة واستجلاء أبعادها، والخلاف بينهما ينحصر في منهج كل منهما، ففي حين لا يرغب عمر بن العزيز في الخوض في مثل القضايا، ويريد أن يقبل النصوص كقضية مسلما بها دون تأويل؛ يسعى غيلان إلى تأويل الآيات وإعمال العقل فيها لتقرير أن العلم الإلهي السابق ليس بسالب لحرية الإنسان، وأن القدر لا يمنعه من تقرير مصيره [(١)].

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١/ ٣٦٩، ابن نباته: سرح العيون ص ٢٩٠.

وإذا كانت هذه المحاورة تعبر عن الحوار المحمود، والرغبة المسبقة لجمع شمل المسلمين على كلمة سواء فإن الجدير بالإشارة أن المحاورة التي دارت بين الحجاج (٩٥هـ) وسعيد بن جبير (٨٣هـ) لم يكن القصد منها شرح حقائق الدين، أو التعرف على سبب انضمامه إلى حركة عبد الرحمن بن الأشعث أو الاستماع إلى وجهة نظره لكي يدافع عن التهم الموجهة إليه لأن الحجاج كان قد اتخذ قراراً بقتل العالم سعيد بن جبير، وأراد من هذه المحاورة السخرية منه والاستهزاء من شخصيته، وجعله عبرة لمن تسول له نفسه الخروج على الدولة. (١)

٣- وما دمنا بصدد الحديث عن الحجاج نذكر أحد ضحاياه الذين غيبوا في غياهب سجنه وهو الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة (٤٥-١٤٥هـ) أحد المؤسسين للمذهب الإباضي، الذي كان يطعم خبز الشعير والملح المجروش (٢). إذ دخل في مجادلات واسعة مع الفرق الإسلامية المنتشرة في مدينة البصرة؛ مثل المعتزلة والمرجئة والصفاتية. ويذكر المؤرخون أن واصل ابن عطاء (١١٠هـ) كان حريصا على لقاء الإمام ويرجو أن يجادله في أمر القدر، فلما التقيا دار بينهما هذا الحوار.

قال واصل: أأنت الذي تقول: إن الله يعذب على القدر؟

قال الإمام: لا، ولكن قلت: إن الله يعذب على المقدور لا على القدر (أي على الفعل الذي يصدر عن الإنسان بمحض إرادته).ولكن ألست أنت الذي تزعم أن الله يعصى بالاستكراه؟ فسكت واصل ولم يجب.

ولما سئل عن سبب سكوته قال: وَيْحَكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وهو واقف. (٣)

٤- يصف المؤرخون جهم بن صفوان (١٢٨هـ) صاحب المذهب الجبري، بأنه كان

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج٢/ ٥٢، مروج الذهب ج٣/ ١٧٣، تاريخ الطبري ج٦/ ٤٨٧.

(٢) طبقات الدرجيني ج٢/ ٢٤٧، الشماخي السير ص ٨٣، مبارك الراشدي: الإمام أبي عبيدة مسلم (الوفاء، المنصورة ١٩٩٢)

(٣) مبارك الراشدي: المصدر السابق ص ١٤١، الجعبيري: نفحات من السير ج٣/ ٣١(مطابع النهضة، مسقط).

صاحب مجادلات ومخاصمات في مسائل الكلام التي يدعو إليها، وأكثرها في الإلهيات. ويذكرون مجادلاته مع الإباضية والمعتزلة والثنوية والسمنية [(١)]. وربما تبدو هذه الصفات جلية من خلال الحوار الآتي بينه وبين بعض السمنية.

قالوا له: ألست تزعم أن لك إلها؟

قال الجهم: نعم. قال السمني: فهل رأيت إلهك؟ قال الجهم: لا.

قال: فهل سمعت كلامه. قال: لا. قال: فشممت له رائحة؟. قال: لا.

قال: فوجدت له حسا أومجسًّا؟ قال: لا. قال: فما يدريك أنه إلـه؟

فأخذ الجهم يرد على السمني الحجة بالحجة، ويهدم وجهة نظره من قواعدها بالمنطق نفسه.

فقال له: ألست تزعم أن فيك روحا، فقال: نعم. قال: فهل رأيت روحك؟ وهل سمعت كلامها؟ وهل وجدت لها حسا؟، والسمني يقول: لا. فقال: الجهم: فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان. [(٢)] فأفحم السمني وسقط في يده.

٥- وحوارات أبي الهذيل العلاف (٢٣٥هـ) مع أقطاب المعتزلة مشهورة، وقد أسهب مؤرخو علم الكلام في إيرادها، مثل حواره مع النظام (٢٢٢هـ) والجبرية، واليهود والثنوية [(٣)].

٦- وفي العصر الحديث دارت حوارات عديدة بين الأستاذ العقاد (١٩٦٤) والدكتور طه حسين (١٩٧٣) وجمهرة من صفوة المثقفين أمثال مصطفى المنفلوطي (١٩٢٤) ومصطفى صادق الرافعي (١٩٣٧) وقد تناولوا جملة من القضايا التي كانت تشغل ساحة الفكر العربي آنذاك مثل: مدارس الأدب العربي ومحاولة تجديده، الشعر

(١) السمنية، قوم من الهند يقولون بالدهر.
(٢) عبد الجبار: طبقات المعتزلة ص ٢٣٧، ابن تيمية: الفتاوي ج٥/ ٣٠.
(٣) معجم الأدباء ج١٥/ ٢٩، ضحى الإسلام ج٣/ ٣٨.

الجاهلي والشعر المعاصر، حرية المرأة، التعليم الجامعي، الشك المنهجي، وأهمية الترجمة، وتطوير الأزهر.

وكانت محصلة هذه المساجلات، والمعارك الثقافية ثراء الساحة الفكرية، وطرح مناهج جديدة كانت عصية على الفكر العربي، والعودة إلى جوانب التراث وإخضاعه للمنهج العلمي، ودراسته دراسة علمية دقيقة، والانفتاح على الفكر الغربي مما ساعد على تلاقح الثقافات [١].

٧- ونختم هذه الأمثلة بالإشارة إلى حوار شهير ذاع صيته في الأوساط الثقافية وفي آفاق الوطن العربي، كان أحد طرفيه الدكتور حسن حنفي من مصر، وطرفه الآخر الدكتور عابد الجابري من المغرب وأطلق عليه اسم حوار المشرق والمغرب. وقد تناولا بصراحة كاملة، ونظرة شمولية، ونزعة عقلية واضحة، وعاطفة دينية جياشة، جملة من هموم الأمة، وقضايا الواقع العربي، إذ ناقشا أثر حركات التجديد الإسلامي في الوطن العربي ومستقبل هذه الحركات، ودور الأفغاني ومحمد عبده ورواد النهضة في الإصلاح السياسي والاجتماعي والفكري، ومستقبل التعددية الفكرية، والسياسية، مع تحليل الفكر الناصري وأبعاده ودراسة إيجابيات الناصرية وسلبياتها وفي أثناء الحوار عرجا على التراث الإسلامي لتحليل أبعاده، ومناقشة مقاصد حديث الفرقة الناجية، وتطرقا إلى الفكر العقائدي عند الإباضية والشيعة، والمعتزلة والأشاعرة، وتكلما عن أثر الحركات السلفية المعاصرة في الفكر الإسلامي...

والحقيقة أن هذا الحوار يمثل حدثا ثقافيا، ولقاء نموذجيا بين قمتين فكريتين سامقتين، ويعبر عن فكر مفتوح لكل التجارب، واطلاع واسع على التراث، ورؤية حرة تستشرف آفاق المستقبل، وتحترم العقل الإنساني. ويعطي مثالا فريداً لما يجب أن يكون عليه الحوار بين المثقفين. [٢]

(١) العقاد: المجموعة الكاملة، المجلد ٢٦/ ٦٦١، ٧٢٧، ٨٠٧ ، كامل الفقى: الأزهر وأثره في النهضة ص ٢١٣.
(٢) حوار المشرق والمغرب (دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠م).

ب-الندوات الثقافية:

تعد الندوات الثقافية مظهرا من مظاهر الحوار الفكري المثمر، ووسيلة من وسائل التعبير عن حرية الرأي، ومؤشرا على التعاون العلمي بين صفوة المثقفين، وجماعة العلماء، وانفتاح العقول على مختلف المدارس الفلسفية والفقهية والعقائدية، علاوة على أنها تكافح من أجل تقليص شقة الخلاف العقائدي بين المذاهب الإسلامية، ومن ثَمَّ ليس من المستبعد أن تؤدي هذه الندوات إلى وحدة مذهبية بين المسلمين كما يأمل أحد الباحثين المعاصرين[(١)].

ومن خلال الاستقراء التاريخي نستطيع أن نشير إلى نماذج من هذه الندوات ربما لشهرتها في التراث العربي، أو لمكانة أعضاء الندوة والمشاركين فيها، أو لتأثيرها في الوسط الثقافي، آنذاك، أولما خلفته من آراء ومقترحات ومؤلفات تركت بصماتها على الفكر العربي.

١) ندوة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة:

في سعيه الدؤوب لنشر الفكر الإباضي، وإعداد الكوادر المدربة، وإقامة الإمامة العادلة ومحاربة الاستبداد الأموي اتخذ الإمام أبو عبيدة الندوة الثقافية وسيلة تعليمية تربوية ـ بالإضافة إلى وسائل أخرى ـ لشرح أبعاد الفكر الإباضي. إذ كان يعقد اجتماعاته في أحد سراديب البصرة بعيدا عن أعين الأمويين، يخصص بعضها للشيوخ، وبعضها للعامة وثالثها وهي أهمها لتكوين الدعاة.

وكانت سنة هذه المجالس أن يقوم أحد المشايخ بالكلام وعرض وجهة نظره بِحُرِّية كاملة، ثم يليه آخر وهكذا، فيتناقشون ويفصحون عن مكنون ضمائرهم، ويتبادلون الرأي في أمور الدين وقضايا العقيدة، والمصاعب التي تواجه الدعوة.

أما في المجالس الخاصة وهي مجالس تكوين الدعاة، فكان ينضم إليه جماعة من مريديه وتلاميذه من طلبة اليمن وعمان وخراسان ومصر والمغرب ممن كان لهم شأن في

(١) عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي ص ٧٩.

بث الدعوة، ويقوم الإمام أبو عبيدة بتفسير بعض آيات القرآن الكريم، ورواية حديث الرسول ﷺ، والأخذ بطرف من مسائل علم الكلام مثل مسائل الصفات، وإيراد الأدلة العقلية، والنقلية على نفي الرؤية، وتقرير حرية الإرادة الإنسانية، والقول بالولاية والبراءة والاستماع إلى آراء تلاميذه ومناقشتهم في أفكارهم.

وفي هذه المجالس السرية أو الندوات العلمية تم إعداد الكوادر القيادية التي قامت بأعباء الدعوة وإقامة دولة الحق.[١]

٢) ندوة صالح بن عبد القدوس (١٧٦هـ)

كان صالح بن عبد القدوس أحد الشعراء الحكماء في العصر العباسي، ومن الذين اتهِمُوا بالزندقة بسبب ميوله الشيعي، وتهجمه على الحكم العباسي، والتنديد بمظالمه، وقد قتل في عصر الخليفة المهدي (١٦٨هـ)

وكان يجتمع مع جماعة من أصدقائه في مدينة البصرة، ومن أبرز أفرادها واصل بن عطاء (١٣١هـ) وعمرو بن عبيد (١٤٤هـ) من مؤسسي فرقة المعتزلة، وبشار بن برد (١٦٨هـ) الشاعر المشهور وقد اتَّهمه المهدي بالزندقة أيضا، وعبد الكريم بن أبي العوجاء (١٧٥هـ) وكان يُتَّهَم بإفساد الشباب، والدس في حديث الرسول ﷺ، ورجل من الأزد هو جرير بن حازم يقال إنه يميل إلى مذهب السمنية. وكثير غيرهم من الشعراء وعلماء الكلام، وكانت الندوة تضم أيضا اليهودي والمسيحي والمسلم يتناشدون الأشعار، ويتذاكرون الأخبار، ويروون الأقاصيص، ويتمازحون بالكلام ويتندرون على النظام السياسي.[٢]

والمَلحَظ الذي نريد أن نسجله أن الندوة كانت تضم المسلم وغير المسلم، والمؤمن والمتهم بالزندقة والعربي والفارسي، والشاعر وعالم الكلام، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة أفق الحضارة الإسلامية، ومحاولتها ضم الأشتات في صعيد واحد، وقدرتها

(١) عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية ص١٠٥-١٠٨، وأيضا مبارك الراشدي: الإمام أبوعبيدة ص ١٨٥، الجعبيري: نفحات من السير ص ٢٧-٣٨.
(٢) سرح العيون ص ٣٠٠ (تح أبوالفضل إبراهيم)، الأغاني ج٣/ ٦٧.

على هضم هذه الأفكار الوافدة، والثقافات المتباينة، وإخراجها في ثوب جديد طابعه إسلامي، لأن الفكر القوي فكر متسامح وقادر على استيعاب التيارات المناوئة له.

فالحضارة الإسلامية مثل النحلة التي تجمع مادتها من رحيق الأزهار، وزنابق الحقل (العالم الخارجي) ثم تهضمها وتفرز عليها عصارتها الداخلية (تاريخها وتراثها) ثم تحول كل ذلك إلى عسل حلو المذاق أي إلى فكر جديد.

٣) ندوة الخليفة المأمون (٢١٨هـ)

تميز المأمون بمواهب شخصية فريدة أهمها حبه للعلم، وعطفه على العلماء وتقريبهم إليه، واطلاعه على علوم الأوائل، وشهد عصره حركة ترجمة[(١)] واسعة للفلسفة اليونانية. أضف إلى ذلك انحيازه إلى المعتزلة أصحاب النزعة العقلية، وقد ساعدهم في نشر مبادئهم من خلال المناظرات التي كان يعقدها في قصره بين العلماء من رجال الفقه وعلماء الكلام، ومدعي التفلسف أمثال ثمامة بن أشرس (٢١٣هـ) والنظام (٢٢٢هـ) والعلاف (٢٣٥هـ) ويحي بن أكثم (٢٤٢هـ) علاوة على أنها كانت تضم أصحاب الفرق الأخرى لاسيما الشيعة وأصحاب النحل الأخرى وكان مضمون الندوات يدور حول القضايا الدينية والعقائدية والفلسفية لاسيما في شرح أبعاد الأصول الخمسة عند المعتزلة، والخوض في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات وفي الفروع والأصول[(٢)].

٤) ندوة أبي سليمان السجستاني (٣٩١هـ)

طارت شهرة ندوة السجستاني إلى الآفاق، بسبب أن أحد روادها العظام هو أبوحيان التوحيدي (٤١٤هـ تقريبا) أحد أمراء البيان العربي، وفارس من فرسان العربية الأفذاذ، الذي سجل هذه المحاورات والمناقشات في لياليه الثقافية الممتعة للعقل، والمؤنسة للعاطفة، وفي مقابساته التي تشعل العقل نورا، والقلب ضياء، والضمير قوة، والحق

(١) راجع أهمية الترجمة وفوائدها، العقاد: المجلد ٢٦/ ٧٢٥، الطويل: تراثنا العربي ص٧١ (سلسلة عالم المعرفة الكويت).

(٢) عبد الجبار: طبقات المعتزلة ص٢٢٧، مروج الذهب ج٣/ ٣٧٢. محمد الزيني: أبو الهذيل العلاف وآراءه الكلامية ص٣٥ (مطبعة الأمل، صنعاء، د. ت)

obeikandi.com

سطوعا، وتملأ النفس معرفة وفهما وإدراكا وفلسفة.

شارك في هذه الندوات الوزير ابن سعدان (٣٧٣هـ)ويعد راعي هذا الحوار الثقافي، علاوة على أن الندوة كانت تضم شتى العلماء من مختلف التخصصات والأديان والبلدان، وكانت تطرح قضايا بقصد أو دون قصد بترتيب أو دون ترتيب، فكلما عنَّ سؤال لعالم، أو حيَّرته قضية أو سيطرت على عقله مسألة من مسائل الإلهيات أو الطبيعيات أو الرياضيات طرحها في الندوة ثم يدور حولها الحديث ويتبارى الأعضاء في البحث عن حلول لها، من خلال الإيغال فيها وتحليلها إلى عناصرها، وإظهار جوانبها المختلفة.

وأهم هذه القضايا، أهمية المنطق وفوائده، والفرق بينه وبين علم النحو، وفوائد علم البلاغة، والكيميا وعلم الفلك، ومهاجمة علماء الكلام، والحديث عن خلق العالم وحدوثه، وحدوث النفس وخلودها مع ذكر آراء أفلاطون وأرسطو وأفلوطين (٢٧٠م). وقضايا أخرى كثيرة تتشعب عن ذلك.[(١)]

٥) ندوة مي زيادة (١٩٤٦):

كانت ندوة مي زيادة تعد من أهم المعالم الثقافية في مصر، في منتصف القرن العشرين، وكانت تعقد يوم الثلاثاء، ويؤمها صفوة المجتمع، وعلية القوم، ونخبة من ألمع رجال الأدب والفكر من مصر وبلاد الشام، ومنهم الشاعر الكبير إسماعيل صبري(١٩٢٣م)، ومصطفى صادق الرافعي (١٩٣٧م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٩٤٦م) والمفكر الكبير عباس محمود العقاد (١٩٦٤م) والدكتور طه حسين (١٩٧٣م) وغيرهم من مفكري عصرهم، وكانت الندوة تتناول أغلب القضايا التي كانت تؤرق هذا الجيل، وتشغل عقله، إذ كان يدور الحديث حول اللغة العامية والفصحى، والموازنة بين الثقافة الفرنسية والإنجليزية، ومدارس الشعر العربي لا سيما شعر المهجر، ودور المرأة في المشاركة الاجتماعية ونقد الكتب الجريئة التي كانت تفجر قضايا جديدة على الساحة العربية مثل المرأة الجديدة، والإسلام وأصول الحكم، وكتاب الشعر الجاهلي.

---

(١) محمد الزيني: موقف أبي سليمان السجستاني من علوم عصره ص١-٤٢ بحث منشور في مجلة اليرموك، العدد الأول ٢٠٠١م الأردن.

openkandil.com

علاوة على تناول القضايا السياسية والاجتماعية، والمقارنة بين حالة أوربا وواقع العرب[١].

٦) ندوة الشيخ مصطفى عبد الرازق[٢] (١٨٨٥-١٩٦٤م):

وأخيرا نشير إلى ندوة الشيخ مصطفى التي كان يعقدها في بيته ويحضرها عدد كبير من أهل الفكر ورجال الثقافة، وعلماء الدين المطربشين والمعممين، الذين تعلموا في الأزهر، والذين نهلوا من علوم أوربا، فيهم المسلم والمسيحي، والعربي وغير العربي، والرجال والنساء، وكانوا يجتمعون لمناقشة أمور الثقافة والدين والفلسفة وقضايا المجتمع بلسان عربي وأعجمي.

ثم تثار المسائل على اختلاف ألوانها، ويتم تبادل الأفكار، فآراء المحافظين ترفض آراء الأحرار المتمدنين، ومؤيدو السفور ينازعون مؤيدي الحجاب، والوطنيون يثورون على الرجعيين، وهكذا في حوار متصل ومتعة عقلية وروحية لطيفة.[٣]

نستنتج مما سبق أن الندوات الثقافية في الحضارة الإسلامية لعبت دورا مؤثرا في البحث عن المعرفة، ومحاولة استجلاء الحقيقة في القضايا المطروحة للنقاش، والدفاع عن اللغة العربية، أضف إلى ذلك أنها كانت مظهرا من مظاهر الحوار الصحي، وتعبيرا صادقا عن الرأي والرأي الآخر، ومعلما بارزا على حرية الرأي والتعبير عنه، ومناقشة المشكلات التي تواجه الفكر العربي، والتأكيد على سماحة الثقافة الإسلامية مع الفكر الوافد والانفتاح عليه، وقدرتها على صهر الثقافات الأخرى في بوتقتها والإيمان العميق بقضية الأصالة والمعاصرة.

---

(١) العقاد: رجال حول مي ص٨٤ (مجلة الهلال، مارس، القاهرة،١٩٦٢)، كامل الشناوي: رجال عرفتهم ص١٢٢.

(٢) أحب أن أنوه بندوة دار لجنة التأليف والترجمة والنشر، التي أسسها أحمد أمين (١٩٥٤)واستمر قرابة أربعين عاما،وكان من أبرز المشاركين فيها د/ زكي نجيب محمود، (شروق من الغرب ص١١٧، هموم المثقفين ص١٨٨/ ٢٠٤)

(٣) الشيخ مصطفى: من آثار عبد الرازق ص٥٨، أحمد أمين: حياتي ص٢٤٨، الأعلام ج٧/ ٣٠٢.

رابعا: قواعد الحوار:

هذه محاولة لاستنباط مجموعة من الأفكار نطرحها لكي تكون معلما على الطريق للمتحاورين، ونبراسا نهتدي في ضوئه لوصول إلى الحقيقة أو الاقتراب من دائرتها والاستفادة من أهل الخبرة وممن هو مستقل بالعلم، من خلال تناول المسائل الواقعية والقضايا التي تمس صميم حياة المسلم، وتهز أركان المجتمع.

١- تحديد المصطلح:

من المهم بمكان إذا أردنا حوارا مثمرا منتجا يقودنا إلى الوحدة الفكرية، والتضامن الثقافي والأخوة الإسلامية، أن نتوقف لتحديد المصطلح الذي ندير الحوار حوله، ونتفق على كلمة سواء، ومن ثم تكون وسيلتنا واحدة، وغايتنا واحدة وسلاحنا واحد وسبيلنا واحد علاوة على أننا سوف نستخدم لغة واضحة مفهومة قد تقودنا إلى الاتفاق في وجهات النظر. ولنأخذ ثلاثة أمثلة على ذلك:

١- لو تناولنا تحليل مصطلح «التنوير» الذي يدور كثيرا على ألسن المتحاورين فسوف نجد أن مفهومه في أوربا يعني فصل الدين عن الدولة، واستبعاد الدين عن مجريات الحياة وحصره داخل جدران الكنيسة، والاعتماد على العقل كلية في تسيير أمور الدولة والشك في الموروث عن القدماء، ورفض التقليد، وغربلة الأفكار السائدة في المجتمع. وبالجملة التنوير «يعني سيادة فلسفة تجريبية مادية ترفض الميتافيزيقا والدين، وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجغرافيا والطب، فلسفة تؤمن بالتغيير وتسعى إلى التجديد» .[(١)] في حين أن مفهوم التنوير في الفكر العربي يعني إعمال العقل في النصوص النقلية وتطبيق الشك المنهجي على تراثنا واحترام كرامة الإنسان، وفي الوقت نفسه إنكار فصل الدين عن الدولة، ورفض ذلك رفضا قاطعا، إذ إن الإسلام هو الحياة وهو الذي يرسم لنا منهجا متكاملا لتسيير شؤون حياتنا في جميع المجالات. ولا شك أن التنوير بالمعنى الأول مرفوض في الحضارة الإسلامية.

(١) د/ أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ ص٨٢.

والواجب علينا أن نتفق على أي المفهومين يمكن أن نستخدمه في حوارنا؟

٢- إذا أردنا أن نتناقش حول مفهوم «الديمقراطية» فيجب أن نستخدم المصطلح الواحد، بمعنى واحد وأن يكون هذا المفهوم واضحا في ذهن المتحاورين. وعلينا أن نتساءل ما المقصود بالديمقراطية، ديمقراطية اليونان، أي الانتخاب الحر المباشر للحاكم حينما كان يجتمع شعب أثينا قاطبة في الملعب الكبير لاختيار حاكم المدينة؟

أم الديمقراطية الشرقية كما كانت في المعسكر الشرقي التي تعبر عن طبقة واحدة هي طبقة البروليتاريا؟ أم الديمقراطية في المجتمع الغربي، أم الديمقراطية في المجتمع العربي؟ فلو اتفقنا بداية حول «مفهوم الديمقراطية» لأرحنا واسترحنا.

٣- ونأخذ مثالا أخيرا، إذا تحدثنا عن مصطلح «حرية المرأة» ، وهو مصطلح مازال متداولا في الساحة الفكرية، ويشغل حيزا كبيرا في عقول المثقفين.

فما المقصود بحرية المرأة، حرية المرأة التي تكلم عنها قاسم أمين[١] (١٨٦٥-١٩٠٨م) وكان يقصد به تعليم المرأة، والحد من ظاهرة الطلاق، وتعدد الزوجات، وحرية اختيار الأزواج، واحترام كرامة المرأة ؟ أم الحرية التي جاءت بها ثورة ١٩١٩م وكانت تعني-علاوة على ما سبق-خلع الحجاب، والدعوة إلى الاختلاط، ودخول المرأة إلى الساحة السياسية[٢]أم الحرية التي اتسعت دائرتها، وأصبحت تعني إباحة الاتصال الجنسي قبل الزواج وحق الإجهاض، وكلام طويل عريض متهافت، سمعناه في مؤتمر المرأة في القاهرة وبكين.

خلاصة القول أن الأغلبية العظمى من البراهين التي نستخدمها والمناقشات التي نخوض فيها في محافلنا الثقافية قد تكون عقيمة وغير مجدية تماما بسبب أن المتحاورين يستخدمون المصطلحات نفسها لكن بمعان مختلفة، ومن ثم يتحدثون لغات متباينة دون أن يدركوا ذلك. ولذلك نقول علينا أن نطبق قانون الهوية –وهو أول قوانين الفكر-

(١) ترجمته في، جورجي زيدان: مشاهير الشرق ج١/ ٤٢٠، تاريخ آداب اللغة العربية ج٤/ ١، ٢٨١
(٢) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ج٢/ ٢٤٨،عمر الدسوقي: في الأدب الحديث ج٢/ ٦١.

والذي يقول أن الشيء هو نفسه، فإذا استخدمنا حدا من الحدود يجب أن نستخدمه بمعنى واحد[١].

وقس على ذلك باقي المصطلحات التي نستخدمها في حياتنا الفكرية؛ مثل الحرية، والسلام، والأخلاق، والعولمة، والحضارة، والشرعية الدولية.

من الجدير بالإشارة أن قضية تحديد «المصطلح» أو الوصول إلى المعاني الكلية، كانت من مهام سقراط وقد استطاع مواجهة أدعياء العلم من السفسطائيين الذين كانوا يتلاعبون بالألفاظ، ويستخدمون اللفظة الواحدة بمعان متعددة، ويحاولون التشكيك في الألفاظ والمعاني وقد انتصر عليهم.

وكذلك اهتم فقهاء الإسلام بهذه القضية اهتماما واسعا.

وفي معرض حديثه عن الأخطاء التي يقع فيها المفكر أشار بيكون (١٦٢٦م)إلى «أوهام السوق» ويعني بذلك الأخطاء التي تنشأ من استعمال اللغة.

٢- عدم التنابز بالألقاب وتبادل التهم:

يلاحظ القارئ المدقق لتراث الفكر الإسلامي، ظاهرة تبادل التهم والسباب بين الفرق العقائدية والسياسية، والتنابز بالألقاب، والجهر بالسوء من القول، مع أن أحدا لم يظلم أحدا ولكن اختلفوا في ميدان الآراء. وإذا تأملنا في معظم الحوارات التي وردت في أدبيات اللغة العربية، يلمس المرء هذه الظاهرة المعيبة لمجرد الاختلاف في المنهج، أو التباين في المذهب، علاوة على أن المتكلمين استخدموا أسلوب الإلزام وهو من الأساليب الجدلية، ويعني إلزام الخصم بنتائج شنيعة لا يرضى عنها، بسبب التعسف في استخلاصها من أقواله، وهذه المواقف نراها قديما وحديثا.

-فإذا يممنا وجهنا شطر الماضي، علمنا أن المذهب الزيدي والإباضي والاعتزالي يقررون التوحيد بين الذات والصفات، وأن الصفات الإلهية هي عين الذات وليست زائدة عن الذات، خوفا من تعدد القدماء، والتشريك في الذات الإلهية، ولكن المذهب

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام: محاضرات في المنطق ص٣٧ (دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٣م).

obeikandl.com

السلفي والأشعري ينكر ذلك، ويرى أن الصفات قديمة قائمة بذات الله وهي زائدة على الذات.

وهذه مجرد مقولات، وآراء يجتهد أصحابها في تقريرها ويستندون بالطبع إلى حجج نقلية وأخرى عقلية.

ونحن لسنا بصدد تصويب هذه الفرقة وتخطئة الأخرى، ولكن نرى من حق أي فرقة تقرير ما ترى، وتجتهد ما شاء لها الاجتهاد مادامت لم تخرج عن النصوص ولم تصادم أقوالها القرآن ولم تنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وتجد في البراهين العقلية والدلائل النقلية مساغا، فلماذا التنابز بالألقاب؟، وإلقاء التهم جزافا، حينما ينبري الأشاعرة مثلا باتهام هذه الفرق بأنهم نفاة الصفات، وينكرون الصفات الإلهية، وبالمثل تتهم هذه الفرق الأشاعرة والسلفيين بأنهم مشبهة ومجسمة.

وهذا الأمر نستطيع أن نلمسه في كثير من قضايا علم الكلام، فأصحاب إثبات رؤية الله في الآخرة يشنون حملة عنيفة على أنصار إنكار رؤية الله والحقيقة أننا بصدد قضية ميتافيزيقية محيرة من الصعب حسمها، وأن معطيات الآيات المنزلة من الممكن تفسيرها لصالح الرأيين.

ولعل منكري الرؤية عندهم من الحجج القوية والأدلة العقلية، والنقلية ما يعضد وجهة نظرهم، ليس هذا فحسب بل لعلهم أقرب إلى تنزيه الذات الإلهية.

من أشهر الحملات العنيفة التي تطالعنا في تاريخ الفلسفة الإسلامية، حملة الإمام الغزالي (٥٠٥هـ)على الفلاسفة، وتكفيرهم في المسائل الثلاث المشهورة وهي قولهم بقدم العالم، وإنكار علم الله بالجزئيات، وتقرير البعث الروحاني دون الجسماني.

ونحن نوافق الإمام الغزالي أن يدير حوارا مع الفلاسفة، ويرد عليهم ويرفض آراءهم فهذا حقه وليذهب في تأييد منهج الصوفية أومنهج المتكلمين ما شاء له التأييد، ولينحز إلى من يشاء من فرق الإسلام، هذا حقه كمفكر كبير مشهور له باع طويل في

الفكر الإسلامي، وقدم راسخة في الدفاع عن مبادئ الإسلام[١]. لكن ما لا نوافق عليه هو إلقاء تهمة الكفر التي كالها للفلاسفة مما دفع ابن رشد أن يفرد كتابا للرد عليه وقرر أن الفلاسفة إما أن يكونوا مصيبين مأجورين وإما مخطئين معذورين[٢].

– أما حديثا فربما كان أكبر مثال على ذلك الهجوم العنيف الذي قاده الدكتور/ محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الحديث» ضد صفوة المفكرين العرب ابتداء من طه حسين وانتهاء بالدكتور زكي نجيب محمود ومرورا بالشيخ علي عبد الرازق.

ونقرر بادئ ذي بدء، بصراحة ووضوح حتى لا يكون عند القارئ أدنى التباس، أن من حق الدكتور البهي أن تكون له وجهة نظر مستقلة، ويخالف هؤلاء المفكرين في آرائهم وله الحق كل الحق في إعلان رأيه وتأييده بالحجج المتاحة له، ولكن الذي نأسف له هو إلقاء التهم جزافا، ورميهم بالعمالة للاستعمار وأنهم من صنائعه، ومن دعاة التغريب ويرمون إلى تشويه شخصية الأمة، وهدم عقائدها ليس هذا فحسب بل وصل الأمر إلى إخراجهم من دائرة الإيمان واتهامهم بالكفر[٣].

ولا نريد أن ندخل في التفاصيل، ونكتفي بالإشارة السريعة، فقد رأى طه حسين تطبيق المنهج الشكي الذي استعاره من ديكارت(١٦٥٠) على الشعر العربي في كتابه «الشعر الجاهلي» ، وقدم بعض التصورات في مجال التعليم لنهضة مصر في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» وحاول الشيخ علي عبد الرازق أن يطرح فكرة جديدة مؤداها أن هناك نظما أخرى غير نظام الخلافة من الواجب أن يوليه المسلمون عنايتهم[٤].

وطرح الدكتور زكي نجيب محمود (١٩٩٣م)منهجا يتمثل في الوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية، وهو يشترط لكل عبارة تدعي الإشارة إلى دنيا الأحياء وأن يقوم

(١) تهافت الفلاسفة ص٩١.
(٢) فصل المقال ص٤٣.
(٣) الفكر الإسلامي ص١٩٧-٣١٤.
(٤) لاشك أننا نعارض تحليلات الشيخ علي عبد الرازق،وبراهينه التي ساقها لأنها تؤدي في نهاية الأمر إلى فصل الدين عن الدولة.

obeikandl.com

صوابها على تصويرها لتجربة الحواس هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكتفي بتحليل لغة العبارة نفسها، وهذا التحليل وحده كفيل بإرشادنا إن كانت العبارة مقبولة من ناحيتها المنطقية أو غير مقبولة. (١)

ولم ين الدكتور زكي يوضح الفروق الواسعة بين الدين والفلسفة، وقد أجملها في وحدانية البناء الديني وتعدده في مجال الفلسفة، واختلاف المصدر والوظيفة، واختلاف درجة قبول المتلقي في كل من الدين والفلسفة. (٢)

وكان قصده أن تكون الأفكار واضحة أمام القارئ، كي لا يساء فهمه.

والذي يهمنا أن الحوار الواسع الذي أداره الدكتور البهي بينه وبين هؤلاء المفكرين جانبه الصواب ليس لأن كلا منهما له منطلقاته وغاياته، ولكن لأنه افتقد إلى الموضوعية، وأبسط قواعد الحوار وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديم الأدلة القوية للقضية التي نحن بصدد الحديث عنها، والانحياز إليها والدفاع عنها بكل وسيلة ممكنة، فمن حق الدكتور البهي أن يتمسك بالتراث ويدافع عنه، وينظر بعين الشك إلى هؤلاء المجددين، وأن لا يوافق على منهجهم، وهم أيضا من حقهم أن يعرضوا لنا تصوراتهم وأفكارهم ويبسطوا حججهم، ثم من حقنا كجمهور قارئ أن ننحاز إلى ما يروقنا من أفكار، ومرور الأيام كفيل بغربلة كل هذه المقولات فما ينفع سوف يمكث في الأرض، وما ليس له قيمة سوف يذهب أدراج الرياح.

فلماذا التخاصم والتراشق بالألفاظ، واتهام جمهرة المفكرين بالمروق من الدين؟.

على كل مفكر أن يعبر عن رأيه، ويتحاور مع الآخر بحرية كاملة لاسيما ونحن جميعا تضمنا عباءة الإسلام، ونستظل بشجرته الوارفة الظلال، وننتمي إلى أمة واحدة، ونتكلم لغة القرآن، والثابت تاريخيا أن الحضارة الإسلامية قد استطاعت أن تستوعب كل هذه المقولات.

---

(١) من زاوية فلسفية ص٦٤.

(٢) قيم من التراث ص١٢٠-١٢٢.

وإذا كانت وسائل هؤلاء العلماء مختلفة، فإن أهدافهم مشتركة، وغاياتهم تتلاقى في محاولة النهوض بالأمة العربية والذود عن مبادئها، والذب عن عقائدها.[(١)]

٣-الحكم على المفكر من خلال قراءة كافة مؤلفاته:

كثيرا ما نقرأ أحكاما قاسية يصدرها بعض العلماء، على زملائهم من خلال قراءة مبتسرة لبعض مؤلفاتهم، دون أن يحيطوا علما بجميع هذه المؤلفات، أو يعكفوا على تحليل بعض الكتب من هذا النتاج الفكري الذي أنتجه المفكر في مراحل عمره، ودون أن يحللوا أبعاد كافة هذا الإنتاج. ومن المعلوم أن أي مفكر من المفكرين يتطور تفكيره من مرحلة إلى أخرى، وما كان يثبته بالأمس من الممكن أن ينفيه اليوم، وقد يتبنى منهجا يدافع عنه ثم يرفضه مرة أخرى، وقد تنتابه أزمة فكرية حادة فينتقل من مرحلة الشك إلى اليقين (الغزالي) وقد ينتقل من مرحلة اليقين إلى مرحلة الشك، ويظل هكذا حائرا بين القضية ونقيضها دون أن ينحاز لمذهب دون آخر (الشكاك).

وقد يعتنق مذهبا من المذاهب السياسية أو الفقهية أو العقائدية، ويصير من رجالاته الكبار ومن المناصرين له، ثم ينسحب منه ويتحول إلى مذهب آخر (عمرو بن عبيد، ابن الراوندي، الأشعري).

---

(١) لمزيد من الأمثلة عن الحوار الذي يعبر عن الغمز واللمز والتنابز بالألقاب، وهوحوار مرفوض بالطبع ما قدمه د/ محمد محمد حسين من هجوم لا مبرر له، ونقد عنيف لا يتفق مع المجادلة بالتي هي أحسن، إذ هاجم جماعة من المجددين في الإسلام وهم رفاعة الطهطاوي (١٨٧٣) والأفغاني (١٨٩٧)ومحمد عبده (١٩٠٥م) وطه حسين راجع في ذلك كتابه (الإسلام والحضارة).
وكذلك ما قام به العلامة والمفكر الكبير الدكتور سعيد رمضان البوطي-أمد الله في عمره-في مقدمة كتابه الممتاز «فقه السيرة النبوية»حيث وزع التهم بالتساوي على مدرسة الإصلاح الديني بقيادة الشيخ محمد عبده وسخر من محاولاته التجديدية، وهاجم فريد وجدي وأنكر على الدكتور حسين هيكل تحليلاته التي أوردها في «حياة محمد»ﷺ والذي نأخذه على العلامة الكبير ليس نقده لهؤلاء المفكرين، أو اعتراضه على منهجهم العلمي، فهذا حقه لاسيما وهو من المجاهدين عن الإسلام والمرابطين في سبيل الدفاع عن حصونه، ولكن الذي يزعجنا منه اتهامه لهم بأنهم ضعاف الإيمان، وجهلة بمبادئ الإسلام ويعملون على تشويه الفكر الإسلامي وأنهم «دعاة السوء ومحترفو الغزو الفكري من مستشرقين ومستغربين وأذناب الجهال»(فقه السيرة ص٩-٣٣)وكرر هذه الاتهامات ثانية للشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت بسبب إنكاره رفع السيد المسيح بالجسد (كبرى اليقينيات الكونية ص١٨٥-٣٣١).

والحقيقة أن المفكر يتعرض لمؤثرات متنوعة سواء أكانت ذاتية (أتت من داخله بعد مراجعة أفكاره، وإعادة النظر فيها، واختبار مدى صحتها)، أم موضوعية وصلت إليه من البيئة المحيطة به بما فيها من عادات وتقاليد وتراث حي مؤثر في النفوس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نحن نعلم أن مرحلة الشباب تتسم بقدر كبير من التمرد الفكري على القيم والعادات السائدة في المجتمع، والشك العميق في أغلب المبادئ أو الأفكار المسلم بها أو الموروثة، والقلق الواسع الذي يجتاح العقل الإنساني بصدد موقفه من الكون والله والمصير، وحيرته المستمرة في أي طريق يسلك؟ وأين معالم الهداية؟، ومتى يصل القلب إلى الطمأنينة والعقل إلى اليقين؟، ثم تأتي مرحلة أخرى تتسم بالنضج العقلي والهدوء والاتزان، والرضا النفسي، والتسامح مع الآخرين، والنظر إلى الموضوع من أكثر من زاوية.

لذلك يجب علينا أن نتوقف عن إصدار أي حكم من الأحكام على مفكر ما إلا بعد قراءة جميع مؤلفاته، ودراستها دراسة مستوعبة، ومتابعة محطاته الفكرية، وتبين أبعاد الملامح الفكرية التي انتهى إليها وإلى أي شاطئ سياسي أو عقائدي، استقرت به سفينته وإلى أي اتجاه توقفت بوصلته ولنأخذ بعض الأمثلة.

أ- يرى الإمام الغزالي أن المعرفة فطرية، ويعني بذلك أن العلم مركوز في النفوس بالقوة ولكنه في مرحلة ثانية رأى أنها مكتسبة وأن خبره في العالم بواسطة الإدراك الحسي.[(١)]

وهذا ما دفع ابن طفيل (٥٨١هـ)إلى اتهامه بان كتبه تربط في موضع وتحل في موضع آخر[(٢)]

والحقيقة أن الموقف ليس فيه تناقض لأن الحكم لم يصدر في زمان واحد، أو كتاب واحد، ومن المؤكد أن تطورا وقع في فكر الإمام الغزالي، وهوالسر في بعض آرائه التي نلمسها عنده، والتي تبدو للنظرة المتسرعة أنها متناقضة.

(١) المنقذ من الضلال ص٦٨.
(٢) حي ابن يقظان ص٥٨.

ب- حينما ذهب الدكتور منصور فهمي(١٨٨٦-١٩٥٩) إلى فرنسا لإعداد رسالة الدكتوراه في موضوع «حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها» وكان في مقتبل الشباب – وهي المرحلة العمرية التي تتميز بالقلق الفكري والجيشان العاطفي والثورة على أفكار المجتمع – نجده قد ضمن هذه الرسالة افتراءات غريبة تصل إلى حد التجديف حول شخص الرسول ﷺ والتعريض به في مسألة تعدد الزوجات، والتشكيك في الوحي. إلا أن فترة الشك التي دهمت منصور فهمي لم تطل وما لبث أن راجع نفسه وثاب إلى رشده، ونقد أفكاره التي أعلنها وعاد يتحدث عن إنسانية الرسول ﷺ وفي مناسبات عدة ظل يؤكد تمسكه بالعقائد الإسلامية[(١)]

ج- وكان إسماعيل مظهر (١٨٩١-١٩٦٢م) أنموذجا آخر من نماذج التمرد الفكري، والثورة على قواعد الدين، التي صاحبته في مرحلة شبابه، وظل سادرا في غيه زمنا ليس بالقليل، متبنيا أفكارا جامحة تدعو إلى الإلحاد، وتتضمن تحريضا على الإباحية، وتحض على الفكر الشيوعي والفوضوية، علاوة على انحيازه إلى مقولة المستشرقين آنذاك، وهي التمييز بين العقلية الآرية والسامية والترويج لها.

وقد أسس مجلة «العصور» التي جعلها لسان حال الدعوة إلى الطعن في القرآن الكريم والتشكيك في المبادئ التي جاء بها لاسيما فيما يتعلق بالجانب العلمي.

والذي نريد أن نوضحه أن هذا الرجل بعد أن أفرغ شحنة الشك من عقله، وبعد أن صال وجال في موضوعات شتى أقلها توضح بجلاء مروقه من الدين، إلا أن هذه الموجة العاتية انحسر مدها، وعادت هادئة ساكنة إلى بر الدين ومقولاته، وأصبح نصيرا قويا للفكر الإسلامي يدافع عنه بحرارة مشبعة بالنزعة الدينية، ويؤكد على جوانبه الإصلاحية في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية.[(٢)]

د- ونختم هذه الأمثلة بالمفكر الكبير الدكتور زكي نجيب محمود (١٩٠٥-

(١) أحمد أمين: حياتي ص٢٤٨، الأعلام ج٧/ ٣٠٢، ذيل الملل والنحل ج٢/ ٨١-٨٣ (دار المعرفة، بيروت د،ت)
(٢) الأعلام ج١/ ٣٢٨، ذيل الملل والنحل ج٢/ ٩١:١٠٩.

openkanal.com

١٩٩٣)الذي شغل الفكر العربي طوال النصف الثاني من القرن العشرين، لما أنتجه من كتب، وما خطه من مقالات وما تبناه من منهج، وما خلفه من تلاميذ، علاوة على أنه كان أستاذا مرموقا في الفلسفة والذي لا شك فيه أن الدكتور زكي كان من أشد الدعاة إلى التغريب – باعترافه هو– وطالب بالتشبه بالأوربيين في عاداتهم وتقاليدهم وغلا في ذلك غلوا شديدا، وتركزت جل كتاباته في شرح مذهب الوضعية المنطقية والدعوة إليه بعد عودته من انجلترا، وقد اعترف الدكتور زكي بذلك في كتابه «تجديد الفكر العربي» و«قصة عقل» وأنه تطرف في دعوته حتى دعا إلى الكتابة من الشمال إلى اليمين كالأوربيين.

لكن الدكتور زكي تأمل مسيرة حياته الفكرية العريضة، وراجع أفكاره، وبدأ يعكف على مطالعة كتب التراث العربي بعين فاحصة محايدة، وخرج بنتيجة مؤداها المواءمة بين الفكر العربي والفكر الغربي، والاغتراف من هذا وذاك، ثم تمثله في عقل المفكر لكي يخرج بنمط جديد، وفكر طريف، وظل يدعو بعد ذلك إلى فكرة الأصالة والمعاصرة والأخذ بعناصر المنهج العلمي، وشرح أسسه.

وخلاصة القول أننا إذا توخينا حوارا مثمرا وصادقا وناجحا فعلينا أن نعكف على دراسة جميع ما أبدعه هؤلاء المفكرون طول حياتهم، ولا نتوقف عند ما أبدعوه في نزق الشباب وفتوة العمر، ولكن ما أبدعوه في شيخوختهم، بعد أن صهرتهم القراءة المتأنية الفاحصة المدققة، وصقلتهم خبرة السنين وحنكتهم تجارب الحياة الحلوة والمرة.[(١)]

٤- حرية الفكر وعدم التعصب:

لعله من البدهي الإشارة إلى دور الإسلام في إقرار حرية الفكر والاعتقاد، والدعوة المسهبة التي حملها إلى أتباعه، والتكرير الدائم على عدم إكراه الناس على فكر ما إلا بعد اقتناعهم به، وإقامة البرهان عليه، ويتجلى ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [سورة البقرة٢٥٦].

(١) راجع في ذلك كتب الدكتور زكي نجيب محمود ومنها شروق من الغرب، المعقول واللامعقول، قصة عقل، قصة نفس، حصاد السنين، (جميعها ط دار الشروق القاهرة)

«وقد تقرر في التعاليم الإسلامية أن حرية الرأي هي المدخل المعتبر إلى الإيمان الحق، فلا يكون الإيمان بالعقيدة إيمانا كاملا في ميزان الدين إلا إذا انبنى على حرية فكرية تتيح التدبر الذاتي في غير توجيه من مؤثرات خارجية» .[١]

وحرية الفكر تعد إحدى السمات البارزة في الحضارة الإسلامية، وهي علامة من علامات الرقي الحضاري، وقد ركزت الحضارة المعاصرة على مفهوم حرية الفكر، أي تقرير حق الاعتقاد والعبادة، والتعبير عن الرأي والإعلان عنه دون خوف أو وجل، تركيزا واسعا، وأصبح ذلك حقا من حقوق الإنسان.

ونعني بالفكر «جملة النشاط الذهني من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة أو أسمى صور العمل الذهني بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق» .[٢]

وقد أنكر الإسلام على فرعون ادعاءه الألوهية واستبداده بالرأي وسلبة حرية الشعب، وفرض آرائه عليهم بالعنف وقيادته التعسفية لهم مما أوردهم موارد التهلكة (سورة:طه ٤٤، القصص٣٨) ولو أقام فرعون حوارا واسعا بينه وبين الكهنة أو الشعب للوصول إلى الرأي الصحيح انطلاقا من مبدأ حرية الفكر وعدم التعصب لرأيه لجنب شعبه الكثير من المخاطر التي تعرض لها.

فحرية الفكر أساس مكين من أسس الحوار والمناظرة بين طرفين، طرف يعبر عن رأيه في حرية كاملة، ودون تعصب له، والتنازل عنه إذا ظهر بطلانه، وطرف ثان متلق للرأي الأول معتمدا على الصيغة نفسها أي حرية الفكر.

وبعبارة أخرى: «أن يكون المناظر مجتهدا يفتي برأيه لا بمذهب أحد ممن تقدمه حتى إذا ظهر له الحق ترك رأيه وأفتى بما ظهر له» [٣]

والهدف الأول هو غربلة الأفكار للوصول إلى الحقيقة التي يرتاح إليها ضمير المتناقشين، وتنضبط بضوابط الشرع وثوابت الدين ومقررات الإسلام.

---

(١) د/ عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي ص٤٦.
(٢) مراد وهبه: المعجم الفلسفي ص١٣٧(القاهرة،١٩٩٧).
(٣) الجيطالي: قناطر الخيرات ج١/ ١٤٩.

Open Kanal.com

على أن يكون مفهوما أن حرية الفكر تعني عدم التعصب أيضا، أي عدم التمسك بالرأي بعد البرهنة على بطلانه، وظهور الحق على يد المتحاور معه، وأبرز مثال على ذلك، تعصب القرشيين لعبادة الأصنام، ومحاولة فرض هذه العبادة على المؤمنين بحد السلاح، وتعذيب من لا ينصاع لأهوائهم، مع أنهم كانوا من سعة العقل، ورجاحة الرأي وبعد النظر، ما يرشدهم إلى طريق الهدى ويوضح لهم أن هذه العبادة لا تفيد ولا تجدي، إلا أن التعصب الشديد، والمكابرة الممقوتة، وحب الرياسة وشهوة السلطة، قادتهم إلى محاربة الرسول ﷺ والوقوف له بالمرصاد على الرغم من شعورهم في قرارة نفوسهم بضعف موقفهم، وتهافت معتقداتهم وإيمانهم الداخلي أن الحق مع الرسول ﷺ، ولعل هذا ما قصده الشيخ الجيطالي في وصيته للمحاور: «أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق» .[١]

وكذلك تعصب الكنيسة لآراء أرسطو في ثبات الأرض والاعتقاد أنها مركز الكون، وبعد أن أثبت علماء عصر النهضة حركة الأرض ودورانها حول الشمس، ظلت الكنيسة ترفض هذه الآراء وتعد القول بها نوعا من التجديف في الدين وأقامت محاكم تفتيش لهؤلاء العلماء.

وحرية الفكر تعني أيضا التسامح مع الآخرين المخالفين لنا في الرأي إيمانا منا بأن مدينة الفكر مفتحة الأبواب «وأن الموضوع الواحد يمكن للمفكر أن يتناوله من عدة جهات دون أن تجيء الأحكام على الجوانب المختلفة مناقضا بعضها لبعض بل هي قد تكون متكاملة يقوي بعضها بعضا» .[٢]

وحرية الفكر تعني الاستماع إلى الرأي الآخر، والتدقيق فيه، وتمحيص جوانبه، وتحليل أبعاده، واكتناه أسراره، وتوضيح إيجابياته وسلبياته، فالرأي الواحد يعبر عن حركة العقل الواحد للوصول إلى المعرفة، أما الآراء المتعددة فتعبر عن حركة العقول

(١) المصدر السابق ج١/ ١٤٩.
(٢) قيم من التراث ص٣٤٤.

مجتمعة. ولاشك أن ذلك يجنبنا الوقوع في الخطأ، فضلا عن أنه يعبر عن الرأي الجمعي، والخبرات المتعددة لصفوة العقول. ثم إن الاستماع للرأي الآخر قد يعبر عن موقف نقدي نحن بحاجة إليه أيضا، إذ يظهر لنا كيف يفكر الطرف الآخر؟، وما حقيقة منهجه؟، وما مضمون تفكيره؟، وأين مكمن الخطأ والصواب في أقواله؟، حتى نستطيع أن نحدد المنهج الملائم الذي يجب أن تستخدمه لتفنيد أقواله، ودحض حججه، ومن المعلوم أن القرآن الكريم، كما يقول: مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١-١٩٣٧) «وقد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها كحاجتها إلى من يقرِّ بها ويقبلها، فهي بأحدهما تثبت وجودها، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار» .[(١)]

ومن أخطر الأخطاء التي يقع فيها الفكر الإنساني والتي أشار إليها بيكون (١٦٢٦) «اختيار الأمثلة التي تؤيد وجهة نظرنا، وإغماض العين عن الأمثلة التي تناقضها»[(٢)]

ومن الجدير بالذكر أن الفكر الإسلامي قد حفل بنماذج عديدة عبرت عن حرية الفكر والدعوة إلى التسامح، والإنصات العميق للرأي المخالف ليس هذا فحسب بل الانفتاح على الفكر الوافد وتقبله ضمن مكوناته وتمثله في تاريخه، وقد تجلى ذلك أعظم التجلي في قول الرسول ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها**» «ودعوته أصحابه الكرام إلى تعلم اللغات الأجنبية لكي يقوا أنفسهم من مكائد الأعداء ودسائس المنافقين، ولعل مقولة الكندي (٢٥٥هـ)فيلسوف العرب تؤكد ما ذهبنا إليه إذ عبر عن وجهة نظره بقوله: «إننا يجب ألا نستحي من استحسان الحق من أين أتى، ولو أتى لنا من الأجناس البعيدة عنا والأمم المباينة لنا»[(٣)]

معللا ذلك بأننا نستطيع أن نحصل على المنافع الكثيرة من فكر الآخر حينما نحاوره ونقتبس منه، وإذا كان الإنسان بطبيعته يحب من يقدم له الخير «فمن أوجب الحق ألا نذم

(١) وحي القلم ج٣/ ١٨٤.
(٢) المنطق الوضعي ج٢/ ١٧٩.
(٣) رسائل الكندي ج١/ ١٠٢.

من كان أحد أسباب منافعنا»[١]

وفي هذا السياق تأتي قضية الترجمة كأحد روافد الثقافة الذي نهلت منه الحضارة الإسلامية حينما قامت بترجمة علوم الأوائل التي قام بها العباسيون لاسيما عصر المأمون (٢١٨هـ)الذي كان أخصب العصور العباسية الفكرية. مما انعكس أثره في ثقافة المعتزلة بعامة والجاحظ والنظام والعلاف بخاصة، وكذلك عند الشيعة وأبي حيان التوحيدي.

خلاصة القول: أننا إذا رغبنا في حوار علمي بين جمهرة المثقفين، فمن الضروري أن نضع نصب أعيننا قضية حرية الفكر ونبذ التعصب، ورفض الرأي الآحادي واتساع أفقنا لتقبل العلوم الوافدة، مع التركيز على الحس النقدي لغربلة الأفكار التي تتعارض مع جوهر معتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا وبالجملة مع هويتنا الإسلامية.

٥-الرجوع إلى المصادر الأساسية لأصحاب المذهب أو الفرقة التي نتحاور حول مضمون فكرها:

نحب أن نلفت النظر أن هذه القاعدة التي نتناولها بالنقاش لها أهمية قصوى، فهي التي تحدد مسار الحوار الصحيح، وترضي نفوس أصحابه وتملأ عقولهم قناعة، وتسكب في ضمائرهم يقينا، وتفضي إلى نتائج قد يتفق عليها الجميع.

وتتلخص هذه القاعدة بأننا إذا أردنا حوارا حول «أصول المذهب الإباضي» فمن أسس المنهج العلمي، وقواعد الأخلاق، أن نعود إلى ما كتبه علماء المذهب أنفسهم لكي نستجلي أبعاده ونفهم مبادئه، ونستوعب أهم الأفكار التي قررها أصحاب المذهب بلا تزيد أوتزييف أوتحريف.

فمن المشكلات العويصة التي واجهت بعض الفرق الإسلامية تشويه فكرها، من قبل أصحاب الفرق المخالفين لها بل وطمس تراثها.

فالتراث الإباضي، كما عرضه عبد القاهر البغدادي (٤٢٨هـ)في «الفرق بين الفرق» يختلف أشد الاختلاف عنه عند الشيخ إسماعيل الجيطالي كما شرحه في قناطر الخيرات

(١) الأهواني: كتاب الكندي إلى المعتصم ص٧٩.

وقواعد الإسلام. ثم استمر هذا التشويه والتشنيع عند المؤرخين المعاصرين فحينما نقرأ رأي الشيخ حسين الذهبي[١] في الرأي الإباضي نلحظ أول ما نلحظ أنه بعيد كل البعد عما قرره الشيخ علي يحيى معمر[٢]، وأن العلاقة بين الرأيين هي علاقة انفصال كما يقول المناطقة.

وهذا ما نلمسه حينما نقرأ التراث الاعتزالي الذي أصابه التحريف والتبديل على يد الإمام الأشعري والبغدادي، والشهرستاني وابن حزم (٤٥٦هـ)وابن تيمية (٧٢٨هـ)وابن القيم (٧٥١هـ)وهو تراث يختلف كلية حينما نطالعه بعيون معتزلية فيما تركه الجاحظ (٢٥٥هـ)من كتب، وحينما نقرأه في كتاب «الانتصار» لأبي الحسين الخياط (٣٠٠هـ) وفي شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار(٤١٥هـ).

وقس على هذا كثير من الظلم الذي لحق بعض المذاهب الإسلامية من جراء بعض الافتراءات التي ألصقت به من المخالفين له.

ومن ثم نؤكد على أننا إذا أردنا أن نصل إلى كلمة سواء فيما يختص بالحوار المزمع إقامته بين المذاهب الإسلامية أو الفرق أو المدارس الفلسفية، فعلينا أن نغترف من الأصول الحقيقية التي وضعها أصحاب هذا المذهب أو ذاك، ولا يجوز لمحاور من المحاورين أن يقرأ ما كتبه خصوم مذهب ما، ثم يدخل في حوار مع أنصاره.

وفي هذا السياق أوضح أن الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى العالم الإسلامي قد تم تشويهها من طرف المترجمين، وهي تختلف كثيرا عما هي عليه في مصادرها، إذ إن كثيرا من المترجمين كان يعكس ديانته على الكتب المترجم له، فبعض المترجمين المسيحيين الذين ترجموا كتب أفلاطون أرادوا أن يستنطقوه مذهب الخطيئة والفداء والصلب والتثليث.

وبعض المترجمين المسلمين جعلوه مسلما موحدا وهكذا.

نستنتج مما سبق أننا لكي ننصف أنفسنا وننصف علماءنا ومذاهبنا الفقهية والعقائدية

(١) التفسير والمفسرون ج٦/ ٣٢٣،٦٩٧،٢٩٢،٢٨٨.
(٢) الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم.

ونرد الاعتبار إلى تاريخنا، ونزيل اللبس والالتباس حول مقامات الصوفية، ونحارب مقالة السوء حول مذاهب الفلاسفة، ونمحيها من عقول العامة والمثقفين، علينا العكوف على تراث هؤلاء العلماء أنفسهم، ونستقرئ ما دبجوه من مقالات، وما خلفوه من مصادر، وما خطوه من كتب، ثم نقوم بدراستها دراسة معمقة ثم بعد ذلك نبدأ حوارا واسعا سوف يؤتي ثماره بإذن الله.

اللهم هبنا حكمة نرى في نورها أين تلتقي اختلافات الرأي والرؤية، قبل أن نرى أين تختلف.(د/ زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٠).

والحمد لله رب العالمين

محمد عبد الرحيم الزيني

مدينة روي – سلطنة عمان

الخميس: ١٠ محرم ١٤٢٤هـ

١٣ مارس ٢٠٠٣م

obeikandl.com

أهم المراجع

١) أمين (أحمد ت١٩٥٤): - ضحى الإسلام ج٣، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م - حياتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧١م.

٢) الجيطالي (إسماعيل ت ٥٧٠هـ): قناطر الخيرات، مطبعة النهضة، مسقط، ١٩٩٨م

٣) حنفي (دحسن، دعابد الجابري): حوار المشرق والمغرب، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٠م

٤) خليفات(د/ عوض): نشأة الحركة الإباضية، دار الشعب الأردن، ١٩٧٨م.

٥) ديورانت (ول): قصة الحضارة ج١، دار الفكر بيروت، ١٩٨٨م.

٦) الراشدي (د/ مبارك): الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، مطبعة الوفاء، المنصورة، مصر، (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)

٧) الرافعي(مصطفى صادق ت١٩٣٨م): وحي القلم، مراجعة سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨) الزركلي(خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م

٩) أبو زهرة (الشيخ محمد ١٩٧٤): تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، القاهرة، (د، ت)

١٠) الزيني(د/ محمد عبد الرحيم): - أبو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية والفلسفية، مطبعة الأمل، صنعاء، ١٩٩٨.

- نشأة علم الكلام وأهدافه، ، مطبعة الأمل، صنعاء، ٢٠٠٠م.

- موقف أبي سليمان السجستاني من علوم عصره، بحث منشور في مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد(١)مارس٢٠٠١م.

- جمال الدين الأفغاني، مجلة الموافقات العدد (٢)الجزائر١٩٩٢م.

١١) العلواني (د/ طه جابر): أدب الاختلاف في الإسلام، ط، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢م.

١٢) عبد الجبار (القاضي ت٤١٥هـ): طبقات المعتزلة، تح فؤاد سيد، تونس، ١٩٨٦م.

١٣) عبد الرازق (الشيخ مصطفيت١٩٤٧م): آثار مصطفى عبد الرازق، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.

١٤) قطب(محمد): شبهات حول الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٥) محمود(د/ زكي نجيب١٩٩٣م): - قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩م.

- من زاوية فلسفية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢م.

- شروق من الغرب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٦) ابن نباته(جمال الدين المصري ت٧٦٨هـ): سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٤م.

١٧) النجار(د/ عبد المجيد): دور حرية الرأي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٣هـ-١٩٩٢م)

١٨) وهبه(د/ مراد): المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٩م.

obeikandl.com